# في إرشاد الأريب
## إلى معرفة الأديب
### للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي
### — ١٨ —

ج ١٩ ص ٢٥٢ : البحتري :

ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا زهو ولا متكبر

قلت : في ديوانه وفي كثير من كتب الأدب ( يزهى ) .

في الصحاح : « العرب أحرف لا يتكلمون بها إلا على سبيل المفعول به وإن كان بمعنى الفاعل ، مثل قولهم : زهى الرجل ، وعنى بالأمر ، ونتجت الشاة والناقة وأشباهها . فاذا أمرت منه قلت : لتزه يا رجل ، وكذلك الأمر من كل فعل لم يسم فاعله ، لأنك إذا أمرت منه فانما تأمر في التحصيل غير الذي تخاطبه أن يوقع به ، وأمر الغائب لا يكون إلا باللام كقولك : ليقم زيد ، وفيه لغة أخرى حكاها ابن دريد : زها يزهو زهوا أي تكبر[1] ، ومنه قولهم : ما أزهاه ، وليس هذا من زهى ، لأن ما لم يسم فاعله لا يتعجب منه . وقلت لأعرابي من بني سليم : ما معنى زهى الرجل ؟ قال : أعجب بنفسه ، فقلت : أتقول : زها إذا افتخر ؟ فقال : أما نحن فلا نتكلم به » . والبيت من قصيدة جيدة مطلعها :

أخفى هوى لك في الضلوع وأظهر ... والام من كمد عليك وأعذر[2]

وقد روى ابن خلكان منها سبعة عشر بيتا ( فيها البيت المذكور ) ثم قال : « وهذا هو السحر الحلال على الحقيقة ، والسهل الممتنع ، فلله دره ما أسلس قياده ، وأعذب ألفاظه ، وأحسن سبكه ، وألطف مقاصده . وليس فيه من الحشو شيء ، بل جميعه نخب » .

قال الصاحب بن عباد في رسالته ( الكشف عن مساوئ شعر المتنبي[1] ) : « جرى حديث أبي عبادة البحتري وهو — يعني ابن العميد — يوفيه حقه الذي استوجبه لجزالة لفظه ، وبشاشة نسجه ، وغزارة طبعه ، وحلاوة شعره . وقال في أثناء هذا المجلس : ما علمت أن في طبع البحتري تكلفا إلى أن قرأت قصيدته في صفة الإيوان ( صنت نفسي عما يدنس نفسي ) » .

قلت : إن العربية لتحمد الله كثيرا أن كان في طبع البحتري تكلف — كما يقول الأستاذ الرئيس — حتى ينظم شاعرنا هذه القصيدة البارعة الباهرة البقرية . ولو لم تتجل صفة الأيوان في الديوان لخلا من درة يتيمة .

وأبو عبادة ثالث ثلاثة يرى ابن الأثير صاحب ( المثل السائر ) أنهم أشعر العرب ، قال :

« والمذهب عندي في تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريرا والأخطل أشعر العرب أولا وآخرا ؛ ومن وقف على الأشعار ووقف على دواوين هؤلاء الثلاثة علم ما أشرت إليه . وأشعر منهم عندي الثلاثة المتأخرون وهم : أبو تمام ، وأبو عبادة البحتري ، وأبو الطيب المتنبي ، فان هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء » .

ووصف الثلاثة فقال في البحتري :

« وأما أبو عبادة البحتري فانه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر ففعل ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينما يكون في شظف نجد إذ تشبث بريف العراق . وسئل أبو الطيب المتنبي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه ؟ فقال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري . ولعمري إنه أنصف في حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فان أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام مع قربه إلى الأفهام » .

وقد نسب قول المتنبي الذي تفضل بإيراده ابن الأثير إلى أبي العلاء . جاء في ( وفيات الأعيان ) :

---

(١) روى هذا في الجمهرة ج ٣ ص ٢٥٠ وجاء في هذا الجزء ص ٢٠٢ : الزهو من قولهم زهى الرجل فهو يزهو إذا تكبر

(٢) في طبعة ديوانه : في كد

---

والوقف الآن هو موقف امتحان للعرب جميعاً — وموقف دفاع عن أنفسهم ، فاذا استطاعوا أن يجتازوا هذا الامتحان — واجتيازه بنجاح ميسور ، والوسائل متوفرة — فلن يبقى للصهيونيين أمل . والمعول على العرب لا على غيرهم ، فأنه ما حك جلدك مثل ظفرك .

ابراهيم عبد القادر المازني

(١) نشرتها ( مكتبة القدسي ) في القاهرة ، والرسالة جيدة مفيدة . ونخب الصاحب أبا الطيب قد بينه الثعالبي في أخبار المتنبي في يتيمته ج ١ ص ٨٦ الطبعة المحمدية

« ويقال : إنه قيل : لأبي العلاء المعرى أى الثلاثة أشعر أبو تمام أم البحترى أم المتنبى ؟ فقال : المتنبى وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحترى » .

وإنه ليستحيل أيما استحالة أن تفلت من الأحمدين هذه الفلتة ، أو أن يتحرك لسانهما بها فى المنام ، إنه كلام حاكه أديب ، ومشى هذا القول ، هذا النجل مجهول الناجل فى الورى ذا نسبتين .

إن المتنبى ما كان يرى غير نفسه ، وكان زهوه لا يعد الشعراء السابقين إلا قائلين صغيرين مبشرين بنبى فى الشعر يأتى من بعدهم اسمه ( أحمد ) .

هو فى شعره نبى ولكن ظهرت معجزاته فى المعانى[1]
وما تسع الأزمان علما بأمرها
ولا تحسن الأيام تكتب ما أملى[2]!

وتعظيم أبى العلاء العجيب لأبى الطيب ثابت مشهور . جاء فى ( أوج التحرى ) :

« وكان أبو العلاء يفضل أبا الطيب المتنبى على غيره من الشعراء كأبى تمام والبحترى وابن الرومى وغيرهم ، وإذا ذكر أحدا منهم أو أورد له شيئا يقول : قال أبو تمام ، قال البحترى ، قال ابن الرومى ، وإذا أورد شيئا لأبى الطيب قال : قال : الشاعر[3] » :

ولم يكتف أبو العلاء بأن يقصر هذا الوصف على سميه بل ظلم الناس من أجله ، قال ابن خلكان :

« يقال : إن أبا العلاء كان إذا سمع شعر ابن هانى يقول : ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا لأجل القمقمة التى فى ألفاظه ، ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ ، ولعمرى ما أنصفه فى هذا المقال ، وما حمله على هذا إلا فرط تعصبه للمتنبى ... وليس فى المغاربة من هو فى طبقته لا من متقدميهم ولا من متأخريهم . بل هو أشعرهم على الإطلاق ، وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة ، وكانا متعاصرين ، وإن كان فى المتنبى مع أبى تمام من الاختلاف ما فيه » .

وإذا أجل نابغة الأدب العربى الطائيين ، وقال فيهما فى درعية : مثل وشى ( الوليد ) لانت وإن كانت(*)

من الصنع مثل وشى ( حبيب )[1]

فابن الحسين عند المعرى فى مرتبة لا يقاعده فيها أحد .

وإذا قال أبو تمام وأبو الطيب أمثالا وحكما كما يقول البحترى ( وما ترويه هو نموذج من كثير ) :

لولا التباين فى الطبائع لم يقم بنيان هذا العالم المجبول
ولا تقل أمم شتى ولا فرق
فالأرض من تربة والناس من رجل
ولم أر أمثال الرجال تفاوتت
إلى الفضل حتى عد ألف بواحد[2]

نطلب الأكثر فى الدنيا وقد نبلغ الحاجة فيها بالأقل
ومن يعرف الأيام لا يرخفضها نعيما ولا يعدد تصرفها بلوى
صعوبة الرزء تلقى فى توقعه مستقبلا ، وانقضاء الرزء أن يقعا
ينال الفتى ما لم يؤمل ، وربما أتاحت له الأقدار ما لم يحاذر
ومن الحسرة والخسران أن يحبط الأجر على طول العمل
إن المشيع لا يبر عدوه حتى يكون مشيع الأصحاب[3]
أرى الحلم بؤسى فى المعيشة للفتى ولا عيش إلا ما حباك به الجهل
واليأس إحدى الراحتين ولن ترى
تعبا كظن الخائب المكدود
إن التنازع فى الرئاسة زلة لا تستقال ، وذلة لم تنصر[4] !

---

(١) أبو القاسم مظفر بن على الطبسى فى رثاء المتنبى وقبله :

لا رعى الله سرب هذا الزمان إذ دهانا فى مثل ذاك اللسان
ما رأى الناس ثانى المتنبى أى ثان يرى لبكر الزمان
كان من نفسه الكبيرة فى جيـ ـش وفى كبريائه ذى سلطان

(٢) المتنبى .

(٣) ( أوج التحرى عن حيثية أبى العلاء المعرى ) للبديعى . حققه ونشره الأستاذ إبراهيم الكيلانى .

(*) قال شارح : أى هى فى اللين والرقة مثل شعر البحترى ، وفى الفخامة المحكمة مثل شعر أبى تمام .

(١) فى مقدمة الكشاف : وإنما الذى تباينت فيه الرتب وعظم فيه التفاوت والتفاضل حتى انتهى الأمر إلى أحد من الوهم متباعد . وترقى إلى أن عد ألف بواحد ما فى العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر . قال الجرجانى فى حاشيته : ( قوله إلى أن عد ) ناظر إلى قول البحترى ( البيت ) وفى عد ألف بواحد مبالغة ليست فى عكسه حيث جعل الواحد أصلا فوبل به الألف مع أن لفظ العد بالكثير أولى .

(٢) المشيع : الشجاع .

(٣) وقبله :

تتجاذبون المجد جذب تعجرف وتعجرف الأمجاد بعض المنكر

وبعده :

ومن العجائب أن غل صدوركم لم يطف لاحدث الجليل الأكبر

قلت : ليستظهر هذه الأبيات كل زعيم أو كبير فى قبيل عربى .

ما أضعف الإنسان لو همة ... في نبـــله أو قوة في لبه
وهل خلا الدهر أولاه وآخره ... من قائم بهدى مذ كُوِّن البشر
والعقل من سيئة وتجربة ... شكلان مولوده ومكتسبه
قـــدره مرتفع عن حظه ... لا يرعك الحظ لم يؤخذ بحق
ليس يحلو وجودك الشيء تبغيه (م) التماسا حتى يمز طـــلابه
يعرف السيف بالضريبة يلقاها (م) وينبي عن الصديق امتحانه
لا أحفل المرء أو تقدمه ... شتى خلال ، أشفها أدبه
ولست أعتد للفتى حسبا ... حتى يرى في فعاله حسبه
وما سفه السفيه وإن تعدى ... بأنجع فيك من حلم الحليم
متى أحفظت ذا كرم تحطى ... إليك ببعض أفعال اللئيم[1]
وأرى الأملاق أحجى بالفتى ... من ثراء يطّبيه بالملق
وأصوب رأي في الصنيعة ردّها ... إلى رجـل يغني غناء رجال
لنا في الدهر آمال طوال ... نرجيها وأعمار قصار
والشعر لمح تكفي إشارته ... وليس بالهذر طولت خطبه

إذا قال أبو تمام والمتنبي مثل هذه الأبيات الحكمية البحترية فهل يقال : ( أبو تمام والمتنبي حكيمان وإنما الشاعر البحتري ) وليس حبيب بن أوس وأحمد بن الحسين مثل صالح بن عبد القدوس في إكثاره في شعره من الأمثال « التي لو نثرها في شعره وجعل بينها فصولا من كلامه لسبق أهل زمانه » كما قال الملك الأديب عبد الله بن المعتز في كتابه ( البديع )[2] .

ويظهر مما نقل إلينا من أقوال المتقدمين في حبيب والمتنبي أن أكثرهم وفيهم ابن الأثير نفسه فارقوا الدنيا ولم يعرفوا هذين الشاعرين ، فليست براعة حبيب في أنه « غير مدافع عن مقام الإغراب الذي برز فيه على الأضراب » وليست فضيلة المتنبي في أنه « حظي في شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال » كما يقول ابن الأثير فيهما .

وللرضي هذا القول الموجز في شعر الثلاثة :

« سئل الشريف الرضي عن أبي تمام وعن البحتري وعن أبي الطيب فقال : أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحتري فواصف جؤذر ، وأما المتنبي فقائد عسكر » وقد روى القول في ( المثل السائر ) .

(١) وجدت هذين البيتين في كتب كثيرة منسوبين إلى البحتري .
(٢) شرحه وعلق عليه محمد عبد المنعم خفاجي بكلية اللغة العربية .

وللشيخ قول في حبيب في ( رسالة الغفران ) وهو « كان صاحب طريقة مستحدثة ومعان كاللؤلؤ منتخبة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من أغلاق » .

وقال القاضي الفاضل في المتنبي ، وقد روى قوله ابن الأثير في كتابه ( الوشي المرقوم في حل المنظوم ) : ( إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس » .

ومن أغرب ما يذكر في هذا المقام ما سطره ابن خلدون في الجزء الأول من ( كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ... ) وهو المعروف بمقدمة ابن خلدون :

« كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية — يعني الشعر — يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء ! لأنهما لم يجريا على أساليب العرب ... » .

وقد نعيت في مقالتي ( المتنبي ) على ابن خلدون وعلى شيوخه إفلاتهم هذا القول أو افتلاتهم ، ومما قلت :

كلام هؤلاء الشيوخ ( شفاهم الله ، وشفى ناقل قولهم منهم ) ليس بشيء إلا شيئا لا يبدأ به ، فأساليب العرب متنوعة مختلفة ، وليس هناك أسلوب أوحد ، ولكل قبيل طريقة ، وللبدوي بلاغة ، وللحضري بلاغة ، وللاقليم أو المكان وللخليقة والمزاج أثر وسلطان ، ولكل قرن زيّ ولحن ، و« أحسن الكلام ما شاكل الزمان[1] » .

والدنيا في تبدل مستمر « وأحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر[2] » ، ولكل نابغة نهج معلوم . فتنكب المتنبي عما تنكب عنه ، وسلوكه السبيل الذي سلكه ما ضاراه بل ظاهراه في إبداعه ونبوغه ، وكان ذلك على هذه اللغة من نعم الله .

وقد جاءنا في هذا الوقت العالم الفاضل ( دكتور محمد كامل حسين أستاذ جراحة العظام بكلية الطب ) بآراء في ابن الحسين وشعره في مقالة عنوانها ( التعقيد في شعر المتنبي ) في مجلة : ( الكاتب المصري ) الغراء .

ونحن لا نجاد له لكننا نسائله « إن على ( عالمنا ) أن نسأله » ؟ .

(١) المأمون . رواه الثعالبي في ( الايجاز والاعجاز ) .
(٢) الفيلسوف النابغة ابن خلدون في مقدمته العبقرية

ألا يرى دكتور محمد — وقد عاود التفكير فى نحته — أن سبب التعقيد فى شعر المتنبي — وكثير منه هو فى قرزمته[١] — لم يكن كما قدر[٢].

وأن من أسبابه كون الرجل مولدا ( قد تسلم العربية تعلمنا إياها فى هذا الزمن ) لا جاهليا أو إسلاميا يلهم تأليف القول إلهاما وأنه ما كان يفكر فى القافية ليبنى عليها البيت كدأب حبيب ، وأن كبرياءه كانت تأخذ ما يجى فى بعض الأوقات فلا يعنى بتقويمه ، وأنه كان يستعجل فى النظم ، وقد أشار ابن جنى فى ( الخصائص ) ص ٣٣٢ إلى هذه السرعة . ثم إن المعانى الجديدة ليست كالمعانى المتداولة المعهودة سهلة التبيين ، وانظر إلى ابن خلدون حين كتب وابن المقفع لما نقل . وإنى لأتذكر أن العلامة الدكتور طه حسين بك شبه فى أحد مباحثه كلام ابن المقفع بكلام العربانيين ( الفرنج المستشرقين ) لاضطرابه واختلال نظامه . وعذر عبد الله وعبد الرحمن عند المنصفين ظاهر مبين .

هل يرى دكتور محمد أن مئات من الأبيات المعقدة والمهلهلة فى طائفة من قصائد المتنبي — لا بضعة الأبيات التى أوردها أمثلة — يذهبن حسنات القصدات ذوات الألوف من الأبيات المحكمة المحققة ؟

وإذا استبشع صورة هذا البيت فى قصيدة ، والأذواق تختلف :

قد سودت شجر الجبال شعورهم
فكأن فيه صفة الغربان[٣]

فهل يستملح هذه الصورة فى القصيدة عينها :

فى جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان[٤]

ألا يرى دكتور محمد أن السيقيات والكافوريات والعضديات قد اشتملن على معان متنوعة ، ومقاصد مختلفة ، وتجلى فيهن خيال سالح ، ووعين صورا رائعة للقارئين ، وأنه لم تسلم من العيوب قصائد بقدرها لشاعر من الشعراء أكثر من سلامتها . لتأخذ تلك القصائد ولتترك ما طعم الرجل من قبلها وإن كان تاليه يجد فيه شيئا عظيما باهرا .

ماذا يعزو دكتور محمد بقوله : « فاعجابنا بشعر المتنبي إعجاب عقلى محض أو بعبارة أخرى إعجاب بالصياغة » فان هاتين الجملتين متباعدتان لا تلتقيان . وإن قصد بالصياغة ما يعنيه مغزى الكلمة فى هذا الباب فاعجاب العرب بشاعرهم لم يجىء من صوب صياغته ، ولو حاول أن يسير فى تلك الطريق المتعبة لعاصاه مزاجه ، ولن يضع منه عندنا أنه لم يكن ذا صياغة . وإذا أعجبنا بقول حبيب الصائغ :

ما إن ترى الأحساب بيضا وضحا إلا بحيث ترى المنايا سودا

أيما إعجاب . فقد تقبلنا قول المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

خير تقبل ، ومعنى البيت واحد . والصياغة البازعة المحيرة عند الغواص الصواغ فى الأول ، والطبيعية البليغة الفصيحة مع المحلق فى سماء القول فى الثانى .

يقول دكتور محمد : « وهو من حيث الشعر العربى قد يكون عظيما ولكنه من حيث الشعر إطلاقا لا يمكن أن يكون ذا خطر » .

فمن أصحاب هذا الشعر من العرب أو العجم فى مذهبه ؟ .

ما قوله فى شكسبير شاعر الإنكليز ؟

ما قوله فى غوته شاعر الجرمان ؟

ما فضيلة هذين الشاعرين عنده ؟

هل لدكتور محمد أن يروى لنا نموذجا أو نتفة من خير ما قال غوته أو من خير ما قال شكسبير أو من خير ما قال شاعر من أرباب ( الشعر إطلاقا ) ؟

دكتور محمد كامل حسين قد ظاهر فى الفضل بين النوعين ، وقد استبد بمنقبتين ، فنحن نستهدى علمه وأدبه ونستفتى غير

(١) القرزمة الابتداء بقول الشعر .

(٢) « ... أما النوع الثانى من تعقيد المتنبي فسببه أعمق وشرح ذلك أن كثيرين من الناس يحبون أن يقولوا صعوبات وهمية أمام أنفسهم يخادعون بها أنفسهم ليقنعوا بأنهم يستطيعون ما يريدون متى أرادوا . ومن ذلك أمثلة مضحكة ، منها الرجل الذى يسير على أفرز فى الشارع متعمدا ألا يضع رجله على فاصل بين حجرين . هذا النوع من العسل له دلالة معينة ترد كثيرا عند التحليل النفسى ... فالتعقيد ظاهرة واضحة الدلالة على عقلية المتنبي ابان شبابه ، وهى دليل صريح على صغار فى النفس وقصور فى الهمة والكفاية وعلى تباعد ما بين غناء الفنى وآماله

(٣) العكبرى : أسف الطائر دنا من الأرض فى طيرانه . يقول لكثرة القتلى وطيران شعورهم على الأشجار اسودت بها فكأن الأشجار لبسوادها بشعورهم قد دنت منها الغربان

(٤) هذا البيت اشتهى الثانى أن يكون قد سبق المتنبي إلى معناه